شخصيات من الحرمين الشريفين(٢١)

أسماء بنت عميس
داعية تحتذى

حسن محمّد

إنّ للنساء المؤمنات الصالحات تاريخاً رائعاً لم تنسه أقلامه ومصادره، وكيف ينسى وقد غدا تاريخاً مثمراً متواصلاً جعل منهنّ أمثلةً تحتذى، ونماذج تقتدى؟!

ومن تلك النساء، مؤمنة صابرة حصلت على أوسمة متعددة من رسول‌الله ﷺ منها وسام الإيمان حيث قال:

«الأخوات الأربع مؤمنات: ميمونة، وأمّ الفضل، وسلمى، و أسماء».

صحابية جليلة، بعد أن عرفت بصبرها، وثباتها، ووعيها، وعبادتها، وبصيرتها، ومعرفتها في تأويل الرؤيا، وحفظها لكثير من الأحاديث النبوية وروايتها، وتسجيلها للعديد من المواقف النبيلة، نالت لقباً كبيراً ووساماً رفيعاً، طالما اشرأبت له الأعناق، إنه (لقب الهجرتين) وهو من رسول الله ﷺ أيضاً، حيث إنها عرفت بأنها صاحبة الهجرتين، فهي أول النساء المهاجرات إلى ديار الحبشة، حيث ملكها العادل، ثم يثرب مدينة رسول الرحمة محمد ﷺ.

غدت هذه المرأة أنموذجاً يقتدى، ومثالاً يحتذى، كما قلنا بحق وجدارة، فهي زوجة وفية صالحة، عرفت بصبرها ووفائها، لبيوت حلّت فيها زوجة وأمّاً...

وهي أمّ مدرسة نقالة أينما كانت، وحلّت في مكة، وفي الحبشة، وفي يثرب، بكل ما تحمله هذه المدرسة، من دروس قيمة، ومفاهيم صادقة، ومبادئ عالية...

وهي داعية مخلصة، هنا وهناك، حفلت حياتها بمفاصل قيمة، وألوان زاهية، وأغصان مؤرقة، راحت تثمر دروساً في بناء المؤمنة الداعية، والأسرة المسلمة الصادقة، والأبناء الصالحين، الذين أحاطتهم ببيئة نظيفة، وتربية سليمة...

وإن قراءة حياتها، كما حياة الأخريات من الصالحات المربيات، يؤكد ضرورة وأهمية التواصل الإيجابي بينهنّ ومجتمعهن، بل ومجتمعات أجيال أخرى جاءت بعدهن، وإن دل هذا فإنه يدل على عظم الرسالة السماوية، التي صنعتهنّ بعد أن وفقن للإيمان بها، وصرن أعضاء عاملات في مدرسة النبوة المقدسة، والصحبة المباركة، وما أعظمها من صحبة خرّجت نخباً صالحة من الرجال والنساء.

نسبها:

هي أسماء بنت عميس بن معد بن تيم بن الحارث ـ أو معد بن الحارث بن تيم ـ بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن سعد بن مالك بن نسر ـ أو بشير ـ بن وهب الله بن شهران بن عفرس بن خلف بن أفتل وهو خثعم[1].

هذا نسبها من أبيها.

وأمّها: هند بنت عوف بن زهير بن الحارث الكنانية، أو هي هند بنت عوف بن الحارث، وهو حماطة بن ربيعة بن ذي جليل بن جرش، واسمه منبه بن أسلم بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن سهل بن

(١) أنظر: تاريخ الطبري ٢: ٣٥١، أحداث سنة: ١٣؛ ومقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الإصفهاني ٣٥، ترجمة محمد بن جعفر.

عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن غريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير، وهو العرنجج بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان، كما في مقاتل الطالبيين، أو هي بنت عوف بن زهير بن الحارث ابن حماطة... كما في الطبقات.

وهند هذه التي هي أم أسماء بنت عميس التي قيل فيها:

الجرشية أكرم الناس أحماء. و جرش من اليمن.

وابنتها أسماء بنت عميس، تزوجها جعفر بن أبي طالب، ثم أبوبكر، ثم أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وابنتها الأخرى، ميمونة أمّ المؤمنين، زوجة النبي صلى الله عليه وآله، وهي آخر امرأة تزوجها صلى الله عليه وآله.

وابنتها الأخرى، لبابة أمّ الفضل أخت ميمونة، أم ولد العباس بن عبدالمطلب.

وابنتها الأخرى، سلمى بنت أم ولد، حمزة بن عبدالمطلب، وقد ولدت له ابنته عمارة.

إذن، فأحماؤها، أي أحماء هذه الجرشية هم: رسول الله صلى الله عليه وآله، وأميرالمؤمنين علي بن أبي طالب، والحمزة، والعباس، وجعفر، وأبوبكر، ومن أحمائها أيضاً الوليد بن المغيرة المخزومي، فأمّ خالد بن الوليد، أمّ الفضل الكبرى بنت الحارث أخت أسماء لأمها.

وميمونة أمّ المؤمنين، أبوها الحارث بن الجون بن بجير بن الهرم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر، وأم المؤمنين هذه هي أخت أسماء من أمّها.

وأخوات ميمونة لأمها، هنّ عشر أخوات، وست أخواتها لأبيها[1].

---

(١) أنظر: مقاتل الطالبيين ٣٦ ـ ٣٥، ترجمة محمد بن جعفر؛ و ابن سعد في الطبقات ٨: ٩٤، ٢٠٥، ٦: ٨٦؛ والإصابة ٨: ٢٠٢ـ١٩١، ١٨: ٧٨، وفي غيرها من المصادر التاريخية.

زواجها:

وقع اختلاف بينها وأختها سلمى، حيث قيل: إن أسماء بنت عميس كانت قبل الإسلام تحت حمزة بن عبد المطلب ابن عمّ رسول الله ﷺ، أنجبت له ابنة «أمة الله»، ثم من بعده كانت تحت شداد بن الهادي الليثي، وأنجبت له «عبدالله وعبد الرحمن» ولكن ردّت هذه الدعوى بأنّ المرأة التي كانت تحت حمزة وشداد هي سلمى بنت عميس أختها، وليس أسماء.

والشيء المتيقن أنها تزوجت ابن عمّ رسول الله ﷺ، جعفر الطيار بن أبي طالب رضي الله عنه، والذي كان شبيهاً به ﷺ، فقد كان ﷺ يقول لجعفر: «**أنت أشبه الناس بخلقي وخلقي**»[1].

فكان ذلك يسرّ أسماء، ويسعدها عندما ترى زوجها شبيهاً بأحسن الخلق وأفضلهم وأحبهم إليها، فكان يحرّك فيها مشاعر الشوق لرؤية النبي الكريم ﷺ..

وقد أسلمت مع زوجها جعفر ـ الذي ظلّ طيلة حياته معها يبادلها المحبة والوفاء والرفقة الصالحة حتى في مسيرتهما الإيمانية ـ في وقت واحد ومبكر من عمر الدعوة، حتى يقال: إن إسلامهما كان قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بمكة.

أسماء في بلاد الهجرة الأولى:

ما إن قرّر زعماء ومشركو قريش معاقبة المؤمنين، حتى أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فكانت أسماء وبرفقة زوجها جعفر، وبعد فترة قليلة من زواجهما، واحدةً ممن شدّ الرحال هجرةً في سبيل الله تعالى، و تنفيذاً لطلب الرسول ﷺ، و فراراً بدينهم وأنفسهم، فوثقت هجرتها الحياة بينهما، وملأت عليهما أجواء إيمانية، جعلت منهما نعم الزوجين، المؤمنين،

(١) مختصر تاريخ دمشق ٦٩:٦ ترجمة جعفر بن أبي طالب.

المهاجرين، المجاهدين، الصابرين، الصادقين، بعد أن أدركا أن الآخرة خير من الأولى.

إذن، ما إن وصل المهاجرون إلى بلاد الحبشة، حتى كانت أسماء وزوجها جعفر، وهو أمير المهاجرين، وابنهما عبد الله على قول، في مقدمة ذلك الركب العظيم، وكانت واحدة من ست عشرة امرأة مهاجرة... ليقيموا في بيت بسيط تكتنفه آلام الغربة، والبعد عن الرسولﷺ وصحبته المباركة، وعن الوطن والأحبة، وتملؤه المودة، والمحبة، والاحترام، لتجعل منهما مثالاً للزوجين الصالحين؛ حقاً لقد ملأ هذا الصحابي الجليل، حياة زوجته أسماء بكل معاني الخير، مما حداها أن تكون شريكته الصالحة في حمل مسؤولية هذا الدين الحنيف، ونشر دعوته في مهجرهما الجديد؛ إضافةً إلى تحملها تربية أولادها الثلاثة الذين منّ الله تعالى عليهما بهم، فقد أنجبت لجعفر في بلاد الحبشة: عبدالله، و محمداً، وعوفاً، وكان ولدها عبد الله أكثر شبهاً بأبيه الذي كان شبيهاً بالنبي الكريمﷺ فكانا كلما اشتاقا لرؤية رسول الرحمةﷺ ملئآ عيونهما منه.

بقيت هذه الصحابية المؤمنة الصابرة وزوجها في الحبشة خمس عشرة سنة أو أقلّ من هذا بقليل، وقعت فيها أمور عديدة واصل فيها رسول اللهﷺ دعمه لهم، عبر موفده عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه يتفقدهم، ويستوضح ما عندهم، ويعلمهم أحكام الله، وما ينزل من آيات قرآنية.

وفي المقابل كانت قريش هي الأخرى، ترسل وفودها إلى ملك الحبشة، لتحثه على تسليمهم وإعادتهم إليه، فقد جاء وفد من قريش إلى ملك الحبشة (النجاشي) يطالبونه بإعادة المسلمين إلى مكة، وكان يضم عمرو بن العاص، وكانوا يقولون له:

«قد ضوي إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم

أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم».

فما كان من النجاشي إلاّ أن أرسل بطلب وفد المسلمين، يسألهم بشأن هذا الأمر، فتقدم جعفر بن أبي طالب ﷺ، زوج أسماء، فقال:

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع الأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لانشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام...»

فتشوّق النجاشي لسماع المزيد؛ فسأله عما جاء به النبيﷺ من عندالله، فما كان من جعفر إلاّ أن أسمعه من سورة مريم...

فبكى النجاشي حتى أخضلّت لحيته، وبكت معه أساقفته، فقال النجاشي:

«إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة، إنطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكيدهم أحد».

فكان ذلك سبباً في إسلام النجاشي، وكان النجاشي سبباً في إسلام وفد قريش، والذي كان من بينهم عمرو بن العاص.

وقد سمّى النجاشي ولده (عبد الله) على اسم ابن جعفر وهو عبد الله، وليس هذا فقط، بل إنّ أسماء قد أرضعته مع ولدها عبد الله بن جعفر، وبالتالي فهما أخوان بالرضاعة، وهذا دليل على عمق العلاقة بين العائلتين: عائلة النجاشي وعائلة جعفر.

إنّ ذلك كان اختباراً عظيماً لهذه الفئة المؤمنة، وأسماء منها تؤدي رسالتها كأفضل داعية قولاً وعملاً وسلوكاً...

هجرتها الثانية:

كم كان سرور رسول اللهﷺ عظيماً حين عادت أسماء وجعفر من الحبشة إلى المدينة المنورة، وهو يعيش فرحة فتح خيبر، وقد عبّر عن فرحته، فقالﷺ بعد

أن قبّل بين عيني جعفر:

«**ما أدري بأيّهما أنا أسرّ: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟!!**»[1].

هي و الخليفة الثاني:

ما إن عادت من هجرتها إلى الحبشة، التي تأخرت فيها، حتى وفقت وزوجها وأولادها إلى هجرة أخرى، وهذه المرة إلى حيث رسول اللهﷺ إلى المدينة، وما إن التقت بحفصة زوج النبيﷺ حتى دخل عليهما عمر بن الخطاب قائلاً:- «لقد سبقناكم بالهجرة فنحن أحقّ برسول اللهﷺ منكم أو: يا حبشية، سبقناكم بالهجرة!

فغضبت رضي الله عنها وقالت:

«أي لعمري لقد صدقت! كنتم مع رسول اللهﷺ يطعم جائعكم، ويعلّم جاهلكم، وكنّا البعداء الطرداء. أما والله لآتين رسول اللهﷺ فلأذكرن ذلك له، ولا أنقص ولا أزيد في ذلك» فذكرت ذلك له، فقالﷺ:

«**لكم الهجرة مرتين، هاجرتم إلى النجاشي! وهاجرتم إلّي**»،

أو «**للناس هجرة واحدة، ولكم هجرتان**».

وعن البخاري في صحيحه عن أبي موسى، أنه قال:

بلغنا مخرج النبيﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، فركبنا فالقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه، حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبيﷺ حين افتتح خيبر، وكان أناسٌ من الناس يقولون لنا ـ يعني أهل السفينة -:

سبقناكم بالهجرة!

ودخلت أسماء بنت عميس ـ وهي ممّن قدم معنا ـ على حفصة زوج النبيﷺ

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٤.

زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر: الحبشية هذه، البحرية هذه؟

قالت أسماء: نعم.

قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقّ برسول الله ﷺ منكم!

فغضبت وقالت: كلاّ والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في الدار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ وأيم الله، لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

قال: «فما قلت له؟»

قَالَت: قلت له: كذا وكذا.

قَال ﷺ: **«ليس بأحق بِي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»**.

قَالَت: فَلَقَد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أقرح ولا أعظم في أنفسهم، مما قال لهم النبي ﷺ.

فقد قضى رسول الله ﷺ لها ـ رضوان الله تعالى عليها ـ ولمن كان معها في الهجرة بالسبْق على عمر وهجرته، وهكذا جاهدت أسماء لتثبت حقها الشرعي

وحقّ إخوانها الذين صحبوها في المشوار الطويل هجرةً ودعوة، وها هي تبشِّر وتَنْشُر هذا الأمر بين من كانوا، يأتونها جماعات للسؤال عن حديث رسول الله ﷺ وقضائه لهم بالسبْق في الهجرة والجهاد.

فسرّت بقول رسول الله ﷺ هذا وأثلج صدرها، ولم يكن ذلك من رسول الله ﷺ تطييباً لخاطرها، وإراحةً لنفسها فقط، بل كان منه ﷺ توضيحاً للحقيقة، وتبييناً للواقع العظيم الذي عاشوه، والهدف الكبير الذي حملوه، وقطعاً لدابر الفتنة، فهم تركوا مكة فارّين بدينهم إلى الحبشة، فكانت هجرة، وهم كذلك انتقلوا من بلاد الحبشة إلى المدينة المنورة، فهذه هجرة أخرى !!!

الامتحان الكبير:

حلّت أسماء في بيت النبوة مع زوجات النبي ﷺ وبناته، فيما راح جعفر يشهد مع رسول الله ﷺ مواقفه الجهادية... إنه ابتلاء آخر لإيمان أسماء، وصبرها، وصمودها، وثباتها، إنه يوم مؤتة ووقعتها، يوم الشهادة، شهادة من ؟! شهادة زوجها جعفر، وهو يقارع أعداء الإسلام ونبيه...

حزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً حين وصله خبر استشهاد عزيزه وحبيبه جعفر، الذي كان يحظى بمعزة خاصة، ومنزلة رفيعة عنده ﷺ، فهو شبيهه وداعيته الثابت الواعي والمجاهد الواعد، فكان يستحق منه ذلك الألم والحزن...، جاء ﷺ أسماء، وهو يحمل إليها نبأ استشهاد حبيبها، ورفيق إيمانها وهجرتها، وها نحن نقرأ ما قالته رضوان الله تعالى عليها.

«أصبحتُ في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه، فأتاني رسول الله ﷺ ولقد هنأت (أي دبغت أربعين إهاباً من أدم) وعجنت عجيني، وأخذت بنيّ فغسلت وجوههم ودهنتهم، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فقال:

«يا أسماء: أين بنو جعفر؟» فجاءت بهم، فقبّلهم رسول الله ﷺ وبكى، فأحست أسماء بحدوث شيء لزوجها، فسألت النبي ﷺ، فقال لها:

«قتل جعفر اليوم»

فقامت تصيح وتنحب، حتى اجتمع عليها الناس يهدؤنها من روعها.

فقالﷺ: **"يا أسماء! لا تقولي هجراً ولا تضربي صدراً"**، فكان حزنها عظيماً وبكاؤها مريراً...

وفي خبرٍ آخر، إنه لما نعى رسول الله ﷺ جعفراً إلى زوجه أسماء بنت عميس، قامت وصاحت وجمعت الناس، فدخلت عليها فاطمة بنت النبي ﷺ وهي تبكي وتقول: وا عمّاه!

فقال رسول الله ﷺ: على مثل جعفر فلتبك البواكي!!!

فكان رسول الله ﷺ يطمئنها قائلاً:

«يا أسماء! هذا جعفر بن أبي طالب، قد مرّ مع جبريل وميكائيل»، فرد عليه السلام، ثم قال صلوات الله عليه: فعوّضه الله عن يديه جناحين يطير بهما حيث شاء.

وورد إنه ﷺ توجه بالدعاء قائلاً: أللهم اخلف جعفراً في أهله وبارك لعبدالله.

ثم رجّع ـ بتشديد الجيم ـ وقال: إصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد شغلوا عن أنفسهم.

وقد نقل الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ النبي ﷺ أمر فاطمة أن تأتي أسماء بنت عميس، ونساؤها وأن تصنع لهم طعاماً ثلاثة أيام، فجرت بذلك السنّة.

وما إن ذكرت أسماء يتم أولادها حتى قال ﷺ لها:

«العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة». رواه أحمد.

ثم رثته رضوان الله عليه ببيتين من الشعر، وهو ما عثرت عليهما:

فآليت لا تنفك عيني حزينة ... عليك و لاينفك جلدي أغبرا

فلله عيناً من رأى مثله فتى ... أكر وأحمى في الهياج وأصبرا

وهي القائلة: ما رأيت شاباً من العرب، كان خيراً من جعفر.

ظلّت أسماء صابرة وفية لذكرى زوجها، وحبيبها، ورفيق دربها، يظهر كل هذا وغيره من خلال انكبابها على رعاية أولادها، وتنشئتهم تقرؤهم القرآن، وتعلّمهم مبادئه، ومفاهيمه، وأحكامه، ولم يشغلها أولادها عن الدعوة إلى الله تعالى بين أخواتها المؤمنات... وبقيت مجالسها عامرة بذكرالله تعالى.

وفاؤها لفاطمة الزهراء عليها السلام:

كانت تتوفر على حبّ كبير، ومودة عالية لسيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء عليها السلام، ونورد هنا بعض ما روي في حبّها وتعلقها المتواصل بسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام:

فقد روي في تزويج فاطمة عليها السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أمر النساء بالخروج، فخرجن مسرعات إلاّ أسماء فقد تأخرت، فدخل النبي صلى الله عليه وآله.

وهنا تقول أسماء:

"فلما خرج رأى سوادي، فقال: مَن أنتِ؟

فقلت: أسماء بنت عميس.

قال: ألم آمرك أن تخرجي؟!!

فقالت: بلى يا رسول الله، وما قصدت خلافك، ولكن كنتُ قد حضرت وفاة خديجة، فبكتْ عند وفاتها، فقلتُ لها: تبكين وأنت سيدة نساء العالمين، وزوجة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومبشّرة على لسانه بالجنة ؟!

فقالت: ما لهذا بكيتُ.. ولكنّ المرأة ليلة زفافها لابدّ لها من امرأة، وفاطمة حديثة عهد بصبا، وأخاف أن لا يكون لها مَن يتولّى أمرها.

فقلت لها: يا مولاتي، لك عهد الله عليّ إن بقيت إلى ذلك الوقت، أن أقوم مقامك في ذلك الأمر.

فبكى رسول الله ﷺ وقال:

"أسأل الله أن يحرسك يا أسماء من فوقك، ومن تحتك، ومن بين يديك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك، من الشيطان الرجيم".

وروي أيضاً أنها كانت حاضرة عند سيدة نساء العالمين فاطمة، في ولادة الإمام الحسن عليه السلام كما في الرواية التالية...

تذكير مهم:

وهنا لابدّ لي من تسجيل هذا التذكير حول حضور كلّ من أسماء بنت عميس وزوجها جعفر زفاف سيدة نساء العالمين لعليّ عليه السلام، وهي أن أسماء هاجرت إلى الحبشة مع رفاق دربها، وعلى رأسهم زوجها جعفر الطيار، بعد البعثة النبوية، وقبل الهجرة النبوية إلى المدينة، في السنة الخامسة، وكانوا آخر العائدين هي وزوجها وصحبه إلى المدينة دار هجرتهم الثانية، سنة ٧ هجرية، فيما كانت سنة زواج سيدة نساء العالمين من الإمام عليّ عليه السلام سنة ٢ أو ٣ هجرية، أو في السنة الأولى للهجرة، كما عليه بعض الروايات. والمفروض أنّ أسماء وأيضاً جعفر، كانا في هذا الوقت في الحبشة! فكلّ هذا وغيره من الأخبار وقع فيه اشتباه، انتبه إليه بعضهم:

كمحمد بن يوسف الكنجي الشافعي في كتابه «كفاية الطالب» حيث قال:

إنّ ذكر أسماء بنت عميس في خبر تزويج فاطمة عليها السلام غير صحيح، لأنّ أسماء التي حضرت في عرس فاطمة إنما هي بنت يزيد بن السكن الأنصارية، ولها أحاديث عن النبي ﷺ، وأسماء بنت عميس كانت مع جعفر بن أبي طالب بالحبشة، وقدم بها يوم فتح خيبر سنة سبع، وكان زواج فاطمة عليها السلام بعد بدر بأيام يسيرة.

أما في كشف الغمة، فقد احتمل أن تكون سلمى بنت عميس هي التي حضرت زفاف فاطمة الزهراء.

وهنا لا بد لي من القول:

١ ـ إنّ هذه الأنصارية كانت من أهل يثرب وتسكن فيها.

٢ ـ لم تكن مسلمةً حين وفاة أم المؤمنين خديجة في مكة، وقد توفيت قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة.

والرواية تذكر أنّ أسماء حضرت وفاة خديجة، وراحت هذه الأخيرة تبكي وتشكو لها خوفها على ابنتها السيدة فاطمة، فيما تعهدت أسماء إن بقيت إلى ذلك الوقت، أن تقوم مقامها، أي مقام السيدة خديجة، في رعاية ابنتها... فكيف لهذه الأنصارية أسماء بنت يزيد بن السكن ـ وهي في المدينة، وهي لم تكن بعدُ مسلمة ـ تأتي إلى مكة لتحضر وفاة أم المؤمنين خديجة، وتعطي ذلك العهد؟!

والنتيجة التي يبدو لي أنها قد تكون الأقرب إلى الصحة، ما احتمله صاحب كشف الغمة، من أنّ الحاضرة ذلك الزفاف، هي سلمى أخت أسماء بنت عميس، وكانت سلمى زوجةً لحمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه.

وماوقع هو اشتباه من الرواة في أسماءبنت‌عميس، وفي وجود جعفر أيضاً[1].

وعلى أيّة حال، فقد كانت العلاقة وطيدةً بين سيدة نساء العالمين وأسماء، فهي التي تشرّفت بتمريضها أيضاً حتى نفسها الأخير، وقد أوصتها بوصاياها في تكفينها وتشييعها، وهي التي نعتها إلى الإمام عليّ عليه السلام، وشاركته في تغسيلها، وتكفينها، وترحيلها، إلى مثواها الأخير...[2]

فلما رأت عليها السلام دنوّ أجلها، وأنها تسرع الخطى للّحاق بأبيها صلى الله عليه وآله، طلبت من أسماء بنت عميس أن تحضر لها ماءاً لتغتسل به، فاغتسلت، و لبست أحسن

(١) أنظر: تاريخ هجرتهم وعودتهم في المصادر التاريخية، ومنها مختصر تاريخ دمشق، ترجمة جعفر بن أبي طالب ٦: ٧٤ـ٦٢.

(٢) أنظر: تاريخ الطبري ٢:٢٥٣، سنة ١١ وغيره من المصادر.

ثيابها... و طلبت من أسماء أن تضع لها فراشاً وسط البيت، فاضطجعت في فراشها، و هي مستقبلة القبلة، ثم دعت أسماء و أم أيمن، وطلبت إحضار علي بن أبي طالب عليه السلام، فحضر عليّ عليه السلام وراحت عليها السلام توصيه بوصاياها...

«يا ابن العم! إنه قد نعيت إلى نفسي، و إنني لا أرى ما بي إلاّ أنني لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة، و أنا أوصيك بأشياء في قلبي».

قال لها علي: "أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله".

فجلس عند رأسها، و أخرج من كان في البيت، ثم قالت: "يا ابن العم! ماعهدتني كاذبة، و لا خائنة، و لا خالفتك منذ عاشرتني".

فقال: "معاذ الله، أنت أعلم، و أبرّ، و أتقى، و أكرم، و أشدّ خوفاً من الله، من أن أوبخك بمخالفتي، و قد عزّ عليَّ مفارقتك و فقدك، إلاّ أنه أمر لابدّ منه، و الله لقد جددت عليَّ مصيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وقد عظمت وفاتك و فقدك، فإنّا لله و إنّا إليه راجعون، من مصيبة ما أفجعها و آلمها و أحزنها، هذه والله مصيبة لا عزاء عنها، و رزية لا خلف لها"...

ومن ضمن ما قالته عليها السلام في وصيتها للإمام عليه السلام مما له علاقة بمقالتها هذه:

...أوصيك يا ابن عم أن تتخذ لي نعشاً...[1]

و فعلاً، فقد قام الإمام عليّ عليه السلام بتغسيلها، ولم يشاركه أحد من النساء إلاّ أسماء بنت عميس، و كان الحسنان يحملان الماء، و يدخلانه إلى المغتسل، ولم يشارك في الغسل، و لم يحضرها غيره، و غير الحسنين، و زينب و أم كلثوم، و فضة جاريتها، وأسماء بنت عميس، ثم صلّى عليها عليّ عليه السلام و كفنها...

ثم وضعها على نعش، صنعته أسماء بنت عميس لفاطمة عليها السلام...

وقد ذكر المؤرخون، أنّ أول من حُمل على نعش، هي فاطمة عليها السلام، صنعته لها

(١) أنظر: المجالس السنيّة للسيد الأمين ٢: ١٢٣؛ وفاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد: ٦٠٩ من روضة الواعظين؛ وبحار الأنوار ٧٨: ٢٥٦.

أسماء بنت عميس، على النحو الذي شاهدته في الحبشة، أيام هجرتها[1].

وقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

" أول نعش أحدث في الإسلام نعش فاطمة، إنها اشتكت شكوتها التي قبضت فيها، و قالت لأسماء:

إني نحلت، و ذهب لحمي، ألا تجعلين لي شيئاً يسترني؟ قالت أسماء: إني إذ كنت بأرض الحبشة، رأيتهم يصنعون شيئاً أفلا أصنع لك؟ فإن أعجبك أصنع لك.

قالت : نعم.

فدعت بسرير، فأكبته لوجهه، ثم دعت بجرائد فشددته على قوائمه، ثم جلّلته ثوباً، فقالت: هكذا رأيتهم يصنعون.

فقالت فاطمة: إصنعي لي مثله، أستريني سترك الله من النار.

كما ظلّت وفية لبيوت أخرى شاءت السماء أن تحلّ فيها زوجة، بعد أن راح يتمنى الاقتران بها رجال رأوا فيها صدق الإيمان، وعمق الوعي، ونفاذ البصيرة والعقل والحكمة، فكان الخليفة الأول أوّل المتقدمين إليها، بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب، ورزقها الله منه محمداً، نعم العبد الصالح، المطيع لله ورسوله وأهل بيته، والمتفانين في سبيلهم...

تعهّدت مسؤولية تربية أبنائها من جعفر، ضمّت إليهم ابنها محمد من أبي بكر، وهي تدعو الله أن يصلح بالهم، وأن يجعلهم على الصراط المستقيم...

مع الإمامة:

وقدّر لهذه المرأة الصالحة، أن تحل في بيتٍ ارتضاه الله تعالى أن يكون من بيوته ،بيت إيمان و طهر، بيت إمامة وصدق، فتشرفت بأن تقترن بمن عرف بقرابته

(١) أنظر: مثلاً تاريخ المدينة المنورة، لعمر بن شبة ١٠٨:١؛ والاستيعاب لابن عبد البر.

القريبة، من رسول الله ﷺ وبقدمه في الإسلام، ونصرته، وجهاده، و بمن وصفه رسول الله ﷺ بصفات عظيمة، لم تتوفر لغيره كالأخوة، والوصية، والخلافة، والولاية...، وقد عصت على الجميع وأبت إلاّ أن تكون لعليّ وعليّ فقط. وهو رفيق رسول الله ﷺ وصهره لابنته الراحلة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وهو شقيق جعفر الطيار زوجها الشهيد، وهو عمّ أولادها الثلاثة. وهو فوق كل هذا وغيره، أروع شخصية صنعتها السماء بعد رسول الله ﷺ، وبدخولها هذا المنزل المبارك تكون قد دخلت أفضل وأعظم مصداق لمدرسة النبوة والإمامة، و من أوسع أبوابها، لتكون أنموذجاً حياً لأخلاق القرآن والإسلام...

لقد تزوج أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بأسماء بنت عميس، وانتقلت إليه برفقة أولادها الأربعة، ليتذوقوا مفاهيم وقيم النبوة والإمامة، من أصدق منابعها؛ وعاشت معه، فكانت صورةً رائعة للمرأة المسلمة، والداعية المؤمنة، وقد أولدها يحيى و عوناً، فكانت مثالاً حياً للزوجة الصالحة، والأم المربيّة، فجعلت الإمام عليه السلام معجباً برجاحة عقلها، وهو ما تنطق به سيرتها، و ماتجده واضحاً حينما اختلف كل من ولديها:

" محمد بن جعفر و محمد بن أبي بكر" وراح كل منهما يتفاخر بأبيه، فقال كلّ منهما للآخر: " أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك".

وأحال الإمام عليّ هذا الأمر إليها ـ رضوان الله تعالى عليها ـ لتقضي بينهما، إذن، كيف استطاعت أن ترضيهما ؟!

وقفت أسماء بينهما، و قالت غير مترددة ولا منتظرة طويلاً: "ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر". فسكت الولدان، وتصالحا.

فقال عليّ مداعباً: " فما أبقيت لنا أو ما تركت لنا شيئاً، ولو قلت غير الذي قلت لمقتك !

قالت: إن ثلاثة أنت أحسنهم خياراً!!![1].

لقد كبرت في عين عليّ، حتى أصبح يردد في كل مكان:

«كذبتكم من النساء الخارقة، فما ثبتت منهنّ امرأة إلاّ أسماء بنت عميس».

و أخيراً رحلت رضوان الله تعالى عليها، وأحداث جسام تعاقبت عليها، كتمت آلامها، وتعالت على جراحها، حين جاءها مصرع ولدها محمدبن أبي بكر، فراحت تتلوى مما تركه نبأ استشهاده من أثر مؤلم على قلبها، فحبست دمعها، وكتمت حزنها، وعكفت في مصلاّها، حتى شخب ثديها ونزفت، ثم فجعت بمقتل زوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فلم تعد بَعْدَ مصابه قادرةً على تحمّل الألم الذي يعتصر بقية قلبها الذي انهكه المرض، حتى فاضت روحها إلى العليّ العظيم، في سنة أربعين للهجرة، رضوان الله تعالى عليها.

(١) أنظر ما رواه زكريا بن أبي زائدة، عما سمعه عن عامر...